الفصل الثالث عشر

المقاومة في الخطاب السياسي، جمال عبد الناصر نموذجاً

فايزة محمد بكري خاطر(*)

أولاً: تعريف المصطلحات(١)

المقاومة، من مقاواة الرجل: غالبة القوة وقد جاء الأمر الإلهي بالمقاومة الدفاعية في قوله تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ اللّه لا يحبّ المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتّى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. . . . وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ويكون الدّين للّه فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظّامين**﴾(٢).

﴿**الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا اللّه واعلموا أن اللّه مع المتقين**﴾(٣). صدق الله العظيم.

(*) كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات في الزقازيق، جامعة الأزهر.

(١) إن الحب يرفرف وأنا أكتب هذه الورقة عن المقاومة في الخطاب السياسي لجمال عبد الناصر فتجمعني به صعيدية متأصلة حتّى النخاع، فكلانا من صعيد مصر، كما إنني ممن أطلق عليهم ـ جيل الثورة ـ الذي تمتع بمجانية التعليم والعلاج وملاءة الإحساس بالعزة وهو يسمع رئيس الجمهورية يقول: «أرفع رأسك يا أخي» حتّى جعلها تاجاً كريماً فوق رؤوس الجيل، فكان لهم أغلى الرجال، الإنسان الذي شكلت نبضات ملايين القلوب خطاه.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيات ١٩٠ ـ ١٩١ و١٩٣.

(٣) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ١٩٤.

يتضح لنا من هذه الآيات المباركة أن الحديث عن القتل والمواجهة هو حديث دفاعي وليس حديثاً هجومياً، وبالتالي قد وجهنا الإسلام إلى عدم الاعتداء، والقتال إلا للدفاع عن النفس وعلى من ظلمونا، وفي الآيات الكريمة أيضاً ربط واضح بين القتل والملاحقة له علاقة بأنهم أخرجوا المؤمنين من ديارهم، ولا يمكن للمؤمنين أن يعودوا إلى ديارهم، إلا إذا لاحقوهم وأخرجوهم وحرروا أرضهم، فالحل هنا يأتي في سياق ردّ الفعل. ولا يأتي في سياق الابتداء والمواجهة، ولا يعبر عن منهجية خاطئة، بل يعبر عن رؤية الإسلام في حفظ الأرض والعرض والكرامة والدفاع عنها جميعاً[٤].

لذلك استقى الخطاب السياسي مبادئ المقاومة من الخطاب الديني المهيمن على العقل العربي. (والخطاب هو ما يكلّم به المرءُ صاحبه)، والسياسي تخصيص لنوع الخطاب عن غيره وهو المرتبط بفن الحكم[٥]. والخطاب باعتباره مقولاً أو مقروءاً. باعتباره مقولاً هو بناء من الأفكار إذا تعلق الأمر بوجهة نظر يعبر عنها تعبيراً استدلالياً، وإلا فهو أحاسيس ومشاعر، فن أو شعر يحمل وجهة نظر، أو هذه الوجهة من النظر مصوغة في بناء استدلالي، أي بشكل مقدمات ونتائج.

وأما الخطاب المقروء، بتعبير المناطقة ـ هو ذلك البناء نفسه وقد أصبح موضوعاً لعملية إعادة البناء، أي نصاً للقراءة، وكيفما كانت درجة وعي القارئ بما يفعل، فإنه لا بُدَّ أن يمارس في ذلك النصّ ما يمارسه صاحب الخطاب عند بناء خطابه[٦]. ويمارس الخطاب السياسي العربي في عهد الثورة علاقة السلطة بالمواطن العربي، ويشيد بالعروبة وإطاره المرجعي، يظل هو الإسلام دوماً، يقول الشيخ الباقوري: «فإذا قلنا إن العرب خير أمة أخرجت للناس، فليس ذلك دعوى ندّعيها، أو قضية نقيم الحجة عليها، ليست قضية عقلية، ولا حكماً تاريخياً».

وإنَّما ذلك خبر نزل به الكتاب وحق نطقت به الآيات[٧]. وكان الخطاب السياسي القومي الثوري مقاوماً لرموز متعددة في الواقع العربي، حتّى استطاع جمال عبد الناصر أن يحول المجتمع المصري الإقطاعي إلى مجتمع اشتراكي، وكان نضال عبد الناصر ضدّ رموز الفساد والاستعمار مشهوداً في خطابه السياسي لإعلاء الحرية والاشتراكية والوحدة.

---

(٤) «العنف والدين وفلسفة العقوبات الإسلامية: (حوار مع الشيخ نعيم قاسم)،» **الحياة الطيبة**، العدد ٩ ([٢٠٠٣]).

(٥) **قاموس المنجد**، ص ١٨٦ و٣٦٢.

(٦) محمد عابد الجابري، **الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية**، ط ٦ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩)، ص ١٠ ـ ١١.

(٧) أحمد حسن الباقوري، **عروبة ودين** (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٨)، ص ٦٣.

يقول الميثاق: إن الحرية السياسية، أي الديمقراطية ليست هي نقل واجهات دستورية شكلية. إن واجهة الديمقراطية المزيفة لم تكن تمثل إلا ديمقراطية الرجعية، والرجعية ليست على استعداد لأن تقطع صلتها بالاستعمار أو توقف تعاونها معه.

إن ذلك كُلّه يمزق القناع عن الواجهة المزيفة ويفضح الخديعة الكبرى في ديمقراطية الرجعية، ويؤكد يقيناً أنّه لا معنى للديمقراطية السياسية أو للحرية في صورتها السياسية من غير الديمقراطية الاقتصادية أو الحرية في صورتها الاجتماعية(٨).

قرون عدة من البؤس والفوضى والانحطاط، لا يعبر عنها انهيار الدولة وتجزئة الوطن واضطراب المجتمع فحسب، بل إنها تنطوي أيضاً على أقسى صورة للماضي من خلال الواقع الحزين الذي يرزح تحته العالم العربي.

كانت المقاومة في الفكر السياسي يحملها الخطاب إلى عامة الناس بإرساء الاشتراكية الضرورية والواجبة للوطن العربي، جزءاً وكلاً، أهي الأفكار المتولدة من الاشتراكية العلمية، أم هي الأفكار المتولدة من تغيرات المجتمع العربي؟

في طريقة النهضوي المبشر بالنهضة والثورة والمعاصرة، وفي الخطاب السياسي لجمال عبد الناصر، كثرت آليات المقاومة في تعبيراته التي يحملها الخطاب السياسي منذُ اللحظات الأولى للثورة. فقد أعلن جمال عبد الناصر إنشاء «محاكم الغدر» لمحاكمة من استخدم نفوذه الرسمي للإثراء غير المشروع في عهود ما قبل الثورة. أعلن عبد الناصر في حديث صحافي في ٢٥ شباط/ فبراير عام ١٩٥٣ ما يلي:

ـ لن تحقق حياة كريمة إلا بالقضاء على الفروق الشائعة بين الطبقات.

ـ لقد عزمنا على تطهير منزلنا وتقوية مجتمعنا وبلوغ أهدافنا.

وفي ١٧ حزيران/ يونيو، صدرت معاهدة الدفاع المشترك بين الدول العربية؛ وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٥٤، جمال عبد الناصر يلقي خطاباً في طنطا يقول فيه «إن الاستعمار لن يخرج بالكلام ولكن بالقوة»، فقد آمن جمال عبد الناصر بمقاومة الاستعمار بالقوة وليس بترديد العبارات الحماسية.

أعلن عبد الناصر في كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦: إننا نقاوم أية سيطرة علينا سواء كانت بريطانية أم شيوعية أم غيرهما.

---

(٨) جمال عبد الناصر، **الميثاق، قدمه الرئيس جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦٢** (القاهرة: الاتحاد الاشتراكي العربي، ١٩٦٢)، الباب الخامس.

عندما قاوم عبد الناصر الإقطاع، قام بالتطبيق الفعلي بتوزيع الأراضي على الفلاحين، وفي ١٣ تموز/ يوليو ١٩٥٤، أعلن بدء الثورة الاجتماعية.

عندما قاوم سيطرة رأس المال، قام بتمصير الشركات المساهمة وإخضاع رؤوس أموالها للتنظيم القومي بما يحقق المصلحة العامة. وعندما حاول الغرب الضغط علينا ورفض البنك الدولي تمويل السدّ العالي، أعلن جمال عبد العناصر قرار تأميم القناة ليبعث من جديد إرادة شعب تكالبت قوى الظلام على خنقه، فنهض يجدد العهد ويجدد معالم المستقبل ويصنع وطناً جديداً متخلصاً من كُلّ صنوف القهر.

ثانياً: المقاومة والديمقراطية

ربط جمال عبد الناصر في خطابه السياسي بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية في ترابط جدلي.

ورأى أن هناك إمكانيتين أو طريقتين لبناء المجتمع الديمقراطي الذي «تزول فيه جميع ضروب عدم المساواة، ذلك أنّه: «إما أن تتحقق الديمقراطية الاجتماعية عن طريق امتداد الديمقراطية السياسية، وإما أن تتطلب ثورة يمكن أن تقودها الطبقة العاملة»[٩].

لقد بدأ الخطاب السياسي للعالم العربي بالخطاب النهضوي الذي نظر إلى عوامل القوة النهضوية في موقعه وثرواته وعبقريته في الجمع بين المادة والروح، ما سيضمن الاستمرار لنهضتهم المقبلة التي لا تنتظر سوى إفساح المجال للإمكانيات العربية الكامنة، بل ـ للمارد العربي، ويبقى بطبيعة الحال انتظار «الزعيم البطل»[١٠]، الذي أعلن: «لا يمكن أن توجد ديمقراطية سياسية بدون ديمقراطية اجتماعية، وإلا فإنها ستكون ديمقراطية اسمية زائفة لأن كلمة «ديمقراطية» إنَّما ابتدعت لأهداف سياسية واجتماعية واقتصادية».

الديمقراطية الحقيقية هي تلك التي تجمع الديمقراطية والسياسية والاجتماعية. من أجل تحقيق الديمقراطية الاجتماعية قامت الثورة في مصر، وبالرغم من الديمقراطية السياسية التي كانوا يخدعوننا بها. وتأكيداً لهذه الديمقراطية، كان الخطاب السياسي لجمال عبد الناصر يبدأ بجمله «إخواني المواطنين»، أو «أيها الأخوة»، أو «أيها المواطنون»، ويكررها كثيراً في خطبه.

---

(٩) عبد الله عبد الدائم، **الوطن العربي والثورة** (بيروت: دار الآداب، ١٩٦٣)، ص ٣٦.

(١٠) الجابري، **الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية**.

وقد أكد عبد الناصر في مقاومته للفقر بإقامة العدالة الاجتماعية وإقامة الديمقراطية الحقيقية وبداية المجتمع الاشتراكي الديمقراطي.

يقول عبد الناصر: «اليوم، ونحن نوزع الأراضي بين الفلاحين، نخطو الخطوة الأولى داخل منطقية طموحاتنا، تطلعاتنا لبلد يشيع فيه الحب والرخاء والمساواة، تطلعات لبلد قوي فيه يشعر كُلّ مواطن أنّه على قدم المساواة مع الآخرين، تطلعات لإزالة مبالغات الماضي وتطلعات لمجتمع لا توجد فيه الفوارق الطبقية»[١١].

لقد أكد الخطاب السياسي لجمال عبد الناصر على مقاومة كُلّ أوجه الإقطاع وتحرير الفرد، وإبطال الاحتكار وسيطرة الرأسمالية على الحكم، والتعاون بين أرباب العمل والعمال، حتّى يمكن تحقيق التحسن في الأوضاع المعيشية.

لا يجب على أرباب العمل أن يستغلوا العمال، والعمال لا يجب أن يستغلوا أرباب العمل.

ولم يترك عبد الناصر جانباً، إلا وقاوم كُلّ أساليب الفساد في معركة تطوير شاملة. إن مئات ألوف الفنيين من العلماء والمتخصصين يقفون في شجاعة وتجرد، يقودون معركة تطوير شاملة تمنح أمتهم حياة جديدة خصبة خلاقة[١٢].

ثالثاً: الشعارات الثلاثة

قاوم عبد الناصر الاحتلال ـ والرأسمالية، برفع شعارات ثلاثة هيمنت على الخطاب السياسي الثوري للعمل لها والتأكيد عليها، فكانت مقاومة الاحتلال بإعلان الجلاء.

وقال: «إننا نقاوم أية سيطرة علينا سواء كانت بريطانية أم شيوعية أم غيرهما»، وفي ١٨ حزيران/ يونيو تمّ جلاء القوات البريطانية عن مصر، وفي ٢٦ تموز/ يوليو ١٩٥٦، أعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية حتّى يخرج آخر جندي بريطاني من مصر، وكان الاستقلال السياسي.

وقد حقق عبد الناصر بالفعل الشعار الأول وهو **الحرية**. وقد أعلن في احتفال توقيع اتفاقية الجلاء «إن الثورة لن تنتهي إلا إذا وفرت لكُلّ عاطل عملاً، ولكل جاهل علماً، ولكل جائع غذاء. أنها ليست ثورة أشخاص ولكنها ثورة مبادئ»[١٣].

---

(١١) خطاب جمال عبد الناصر في توزيع صكوك الأراضي في ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٥٩.

(١٢) خطاب جمال عبد الناصر في ٢٢ تموز/ يوليو ١٩٦١.

(١٣) حكمة محمود الكفراوي، «١٨ عاماً من نضال جمال عبد الناصر،» (الحزب الناصري)، ص ٤٠.

قاوم عبد الناصر المعاني السلبية في مجموعها، حتّى المعاني النفسية (الحقد والكراهية). فيقول: «آمنا إن المجتمع الذي نتمناه يمكن أن يبنى بالمحبة والتعاون والتضامن».

ذاك أيها الأخوة، كان طريقنا منذُ اليوم الأول للثورة، أعلنا مبادئ هذه الثورة وقلنا إنّه تمّ التحضير لهذه الثورة، فأولئك الذين أعدوها كانوا موحدين بهدف كبير وعنصر كبير وهدف كبير وحّد بين أفرادها بالمحبة.

كان يوجد إقطاع وأردنا أن نقضي على الإقطاع. لم نقضِ على الإقطاع نتيجة أي كراهية في قلوبنا، بل لأننا أردنا تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة. لم يكن ثأراً من الإقطاعيين، لكننا أردنا تصحيح الأخطاء التي ورثناها من الماضي عندما تمّ توزيع الأراضي على مجموعة صغيرة من الشعب. عندما رفعنا هذه الشعارات من وضع الأسس للمجتمع الاشتراكي الديمقراطي المتعاون والقضاء على الإقطاع وإعادة تنظيم الاقتصاد وتوجيهه بطريقة مفيدة لجميع أبناء هذه الأمة.

الثورة الاجتماعية التي رفعنا رايتها هدفت إلى تقويض الإقطاع وإلغاء الاستغلال.

لقد تميز الخطاب القومي بالتلازم الضروري بين الوحدة والاشتراكية من جهة، وبين تحرير فلسطين من جهة أخرى، فقد كان البعد الكفاحي لعبد الناصر يرتوي من آمال الشعب العريضة، ويرويها بالآمال يحاول أن يحققها، ويرتوي بحب الناس ليواصل المقاومة والكفاح، وكما استقى هذا النضال أفقه الوحدوي ـ التقدمي ـ من وحده اللغة والثقافة، عمل بدوره على إبراز فعالية هذا العنصر (الوحدوي) وتمديده عبر التاريخ العربي كُلّه. وهكذا يمكن القول بصفة عامة، إن التهديد الخارجي، وليس التطور الداخلي، هو الذي كان المهماز الرئيس الذي أيقظ ويوقظ في نفوس العرب الشعور القومي، وهو الذي دفعهم ويدفعهم، إلى ربط التقدم بالوحدة، وبالتالي إعطاء النهضة بعداً أفقياً (الوحدة) إلى جانب بعدها العمودي (التقدم)[١٤].

أما بالنسبة **للاشتراكية**، فقد قاوم عبد الناصر وبشده كُلّ أساليب الاستغلال، وسعى إلى نشر عدالة التوزيع بين أبناء الشعب.

«إن المجتمع الاشتراكي الديمقراطي هذا، هو السبيل الوحيد والأساسي لحماية وحفظ الاستقلال، وبالسعي إلى بناء مجتمع اشتراكي ديمقراطي، يجب منع الاستغلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فإننا نعني أن كُلّ الأمة ملتحمة بالتعاون

---

(١٤) الجابري، **الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية**، ص ١٠٨.

والمحبة، ستناضل جاهدة لبناء مثل هذا المجتمع، لأن مجتمعاً مبنياً على الكراهية والحقد، لا يمكن أن يعتبر سليماً على الإطلاق. لهذا نعمل جاهدين لتحقيق مجتمع يقوم على الحب والتعاون»[١٥].

وبدأت مقاومة عبد الناصر للقضاء على الاستغلال بكل الطرق التي تُكمل توزيع صكوك الأراضي وتشجيع رأس المال الخاص، وتشجيع الإنتاج المحلي، بل مراجعة قوانين التصنيع الصادرة خلال أيام الاحتلال، والتي كانت ما زالت سارية المفعول.

أما بالنسبة إلى **الوحدة** التي كان يأمل أن تشمل العالم العربي، كان الفكر الحرّ يقاوم كُلّ أساليب تعطيل الآمال الكبرى، فيقول عبد الناصر «أنتم شباب الأمة العربية أملها الوحيد للتغلب على المصاعب التي تواجهها في شكل محاولات الهيمنة وإشاعة الفرقة بين أبنائها. اليقظة والتصميم والعزم الذي تتسلحون به سيمكننا جميعاً في كُلّ أجزاء العالم العربي من تحقيق الأمل الذي يملأ قلب كُلّ عربي، محققين بالتالي التضامن العربي الذي هو درعنا ضدّ كُلّ الدسائس».

كانت الدراسات العسكرية لجمال عبد الناصر ذات تأثير في بلورة أفكاره العربية. قال للصحافي البريطاني ديزموند ستيوارت (Desmond Stewart) في حديث معه في الأول من نيسان/ أبريل ١٩٥٥:

«تبلورت في ذهني فكرة القومية العربية كمذهب سياسي عندما كنا ندرس في كلية أركان الحرب المشكلات الإستراتيجية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط. صحيح أن معظم الثورات التي تمت في الوطن العربي لم تنتج بأيدي ضباط المخابرات المصرية، ولكن النموذج الذي كانت تقدمه الثورة المصرية، والآراء التي كان يلقيها جمال عبد الناصر، كانت هي المحرك الرئيسي لمعظم الثورات، والتي ما كانت تبدأ حتّى تجد من القاهرة كُلّ ما يمكن من التأييد والمعاونة»[١٦].

ويتضمن الدستور المصري لعام ١٩٥٦ في مادته الأولى أن «مصر دولة عربية ذات سيادة، وهي جمهورية ديمقراطية، والشعب المصري جزء من الأمة العربية».

وفي ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٥٨ قال جمال عبد الناصر في دمشق: «إذا كان العالم

---

(١٥) جمال عبد الناصر، **خطابات الرئيس جمال عبد الناصر ومقابلاته الصحفية ١٩٥٩**، ترجمة أساتذة مختصين (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠١).

(١٦) أحمد حمروش، **ثورة ٢٣ يوليو: ثورة يوليو والديمقراطية، ثورة يوليو الاشتراكية** (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١)، ص ٦٩٤.

قد عاش من قبل في عصر النهضة، ثُمّ عاش بعد ذلك في عصر القضاء، فإننا نعيش اليوم في عصر الوحدة العربية». عبد الناصر الزعيم الذي نقل الوحدة العربية من الفكرة النظرية إلى الواقع التطبيقي.

وفي ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ كانت الثورة العراقية التي اعتبرها جمال عبد الناصر نصراً عظيماً، وكان انهيار النظام الملكي في بغداد، بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة، تصاعداً في انتصارات جمال عبد الناصر. وشعر أن من واجبه مساندة هذه الثورة[١٧].

وفي ٢١ شباط/ فبراير نشر في **الأهرام**[١٨] مانشيت عبارة «الحمد لله» التي بدأ بها جمال عبد الناصر خطابه، تعبيراً عن ارتياحه لانتصار ثورتي اليمن والجزائر. وبمرجعية عبد الناصر التي وقف بها شامخاً في كُلّ الأحداث على الساحة العربية، حاول أن يجمع الأمة على رأي واحد مسانداً كُلّ الأطراف؛ وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٥، عقد جمال عبد الناصر اجتماعاً مع الملك سعود وشكري القوتلي وأقنعهما بمساعدة الأردن مالياً.

وكان الملك سعود يأخذ موقفاً جافاً من المملكة الأردنية التي كان يسيطر عليها الضباط البريطانيون لخلافه مع بريطانيا حول واحة البورجيمي. وكان جمال عبد الناصر حريصاً على إنقاذ الأردن من براثن الاحتلال والسيطرة البريطانية، وكان يقدر صعوبة موقفها المادي وأهمية ارتباطها العربي.

عاش جمال عبد الناصر ومات بهموم أمته والشعوب العربية. وكانت حرب فلسطين سبباً من الأسباب الرئيسيّة التي دفعت إلى تنظيم الضباط الأحرار الذي قاده جمال عبد الناصر بعد انتهاء القتال وتوقيع الهدنة عام ١٩٤٩. وبعد هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، أعلن عبد الناصر بشجاعة منقطعة النظير، تحمله للمسؤولية الكاملة عما حدث، والتنحي عن منصبه كرئيس للجمهورية، وعودته إلى صفوف الشعب كفرد يؤدي واجبه المطلوب منه على أكمل وجه. ولكن الجماهير خرجت عن بكرة أبيها معلنة تمسكها الكامل بجمال عبد الناصر رئيساً وقائداً، وهذا ما دفع بعبد الناصر إلى التراجع عن قراره، وأخذ يمسك بزمام الأمور الكاملة في القوات المسلحة التي لم تكن له كاملة قبل وقوع الهزيمة. وتخلص من القادة العسكريين الذين كانوا سبباً في هذه الهزيمة، وأخذ في بناء القوات المسلحة بأسلوب علمي وتدريب شاق،

---

(١٧) المصدر نفسه، ص ٨٠٨.

(١٨) **الأهرام**، ٢١/ ٢/ ١٩٦٣.

وجنود من حملة المؤهلات لاستيعاب التطور التكنولوجي في الأسلحة. والمقاومة لم تعدّ مصرية فقط بل أصبحت عربية، فعدوان حزيران/ يونيو ١٩٦٧ شمل كل من مصر وسوريا والأردن، واقتطع من كُلّ منها أرضاً سقطت تحت الاحتلال.

ونتج عن الهزيمة خلق رابطة نضالية مشتركة بين شعوب الأمة العربية، وجذبت قضية فلسطين ثلاث دول عربية جديدة أصبحت أرضها محتلة أيضاً. كما جذبت بطريق غير مباشر بقية الدول العربية التي لحقتها إهانة الهزيمة، والتي لم تفرق بين عربي من المشرق أو المغرب.

حمل خطاب عبد الناصر الأمل في استعادة ما خسره العرب في الهزيمة بتشكيل «لجان المواطنين من أجل المعركة»، وبدأت حرب الاستنزاف، وأصبحت المقاومة واقعاً فعلياً لمواجهة الهزيمة، وعاش عبد الناصر مواجهة السلبيات بكل الأساليب السياسية والعسكرية.

حتّى كانت وفاته أبلغ خطاب لوقف الدمّ العربي في عمّان، الذي تحركت فيه القوات المسلحة الأردنية للهجوم على معسكرات الفلسطينيين ومراكز تدريبهم، فعقد مؤتمراً يوم ٢٥ أيلول/ سبتمبر، وتوصل المؤتمر إلى الوقف الفوري لإطلاق النار، ووقع عليه الملك حسين وياسر عرفات.

حمل جمال عبد الناصر مسؤولية التغيير الجذري داخلياً وخارجياً، بعد أن حفر التاريخ اسمه في مكان بارز في تاريخ مصر. وعندما حملت جموع الشعب المصري جثمان عبد الناصر. كانت تحمل آمالها وقلبها الأغلى.

مقاوماً أسطورياً غرس المبادئ وكانت كُلّ أمانيه هي سعادة الشعوب العربية وتحريرها من كُلّ أساليب الفساد.

رابعاً: دور الخطاب السياسي في واقعنا المعاصر

إن واقعنا المعاصر يعاني فشل الخطاب السياسي العربي، فعلينا نحن المثقفين البحث عن الأساليب التي تعيد الصدقية للخطاب السياسي على تعبير المفكر الفلسطيني أحمد صدقي الدجاني: «إن مسؤولية رجال الفكر في الوطن العربي والعالم الإسلامي وأهل الحلّ والعقد عموماً، أن يتكاتفوا لصنع الإجابة الصحيحة[١٩].

الخطاب السياسي هو المحرك لمشاعر ووجدان الشعوب، فما هو دور المفكرين

(١٩) أحمد صدقي الدجاني، «مستقبل العلاقة بين القومية العربية والإسلام،» **المستقبل العربي**، السنة ٣، العدد ٢٤ (شباط/ فبراير ١٩٨١)، ص ٦٣.

والمثقفين في عودة الأمل في إرساء سياسي يحرك الأمة إلى الاتحاد؟ «إذا كانت الأحاسيس تحرك الشعب العربي في كُلّ بلد عربي يقول عبد الناصر، وعبر إحباط تصاميم أعدائنا لنزرع بذور الشقاق بيننا وبين أخوتنا سواء في هذا البلد أو في أي بلد عربي آخر، فعبر وحدتنا، أقول، وعبر إحباط تلك الدسائس سنقرر على بناء هذا البنيان الصلب، ونتجه على درب تقوية وتعزيز فكرة التضامن العربي والوحدة العربية[٢٠]، فعندما قال عبد الناصر إن الجماهير العربية لم تكن طلائع حبيسة، وإنَّما جحافل شعب رسمت خريطة أمتها بنفسها من جديد خلال هذه الفترة القصيرة. لقد بعثته الأمة العربية من جديد.

ولكن هذا البعث والنبت الذي نمت جذوره الوحدوية نحو التغيير أين هو الآن؟ أين المبادئ التي حارب جمال عبد الناصر من أجلها بحماية ممتلكات الشعب؟ أين القضاء على الرشى والواسطة وإتاحة الفرص أمام الجميع؟ إن حركة الجماهير العربية العريضة والتي يجب أن تتحد منزرعة بالصمود. إذا كانت الحكومات تحكمها البروتوكولات والاتفاقات الدولية، فأين حركة الشعوب العربية التي وقفت في عام ١٩٥٦ تفجر أنابيب البترول حتّى أظلم الغرب، فهرع يطلب التفاوض على بصيص الشموع.

يجب أن يرفع شعار سوق العرب من العرب للعرب، ويجب التصدي في خطابنا السياسي بالإصلاح الداخلي في أنفسنا، حتّى نجمع شتات سيكولوجيتنا المحترقة في العواصم العربية لنكون جبهة واحدة ورأياً واحداً. إذا عجزنا أن نكون جيشاً واحداً فنكون رأياً واحداً، وتكون أصوات الشعوب الهادرة ترفع **لا** أمام الظلم والاعتداء، نرفع **لا** أمام الاستيرادات الأجنبية بكل أصنافها. لا بُدَّ من تحقيق التكامل الاقتصادي بين الأقطار العربية بوضعها الراهن من دون قيام وحدة بين هذه الأقطار، ونجعل هذا التكامل مثل وحدة اللغة والتاريخ والمصير المشترك. ومهما قيل عن عيوب التجربة الناصرية، فلا أحد يستطيع أن ينكر أنها أحدثت تحولاً مهماً في الساحة العربية، السياسية والفكرية، بل العالمية، إن قضية الوحدة والاشتراكية التي كانت تطرح من منابر حزبية وكتابات متفرقة، أصبحت تشكل أيديولوجيا رسمية لأكبر وأهم دولة عربية يتأثر بوزنها الثقيل سياسياً وثقافياً، كُلّ قطر عربي مشرقاً ومغرباً.

إن المعارك التي خاضتها الثورة المصرية على الرجعية المحلية والعربية، ومع الاستعمار والصهيونية والامبريالية. وتفتحها المتزايد على الفكر التقدمي العالمي، جعل

---

(٢٠) عبد الناصر، **خطابات الرئيس جمال عبد الناصر ومقابلاته الصحفية ١٩٥٩**، ص ٣٠٢.

الخريطة الأيديولوجية في الساحة العربية تتغير تغيراً أساسياً وعميقاً. إن استقلال دول العالم الثالث طرح الظاهرة المسماة بظاهرة التخلف أو بمصطلح التنمية، فأصبحت الاشتراكية في العالم الثالث تعني ـ لأجل تناقضات الرأسمالية المتطورة. بل حلّ مشكلة التخلف ذاته ـ الطريق الوحيد الذي بإمكانه أن يؤدي إلى بناء المجتمع على أسس عادلة، مع احتفاظه باستقلاله السياسي والاقتصادي والثقافي.

إن الحلّ الاشتراكي بمفهومه الإسلامي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي في مصر، هو حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير، كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم في النصف الثاني من القرن العشرين[٢١]. إن الهدف من الاشتراكية أصبح، إذاً ليس فقط إعادة توزيع الثروة الوطنية على المواطنين بشكل عادل، بل إنَّه أولاً وقبل كُلّ شيء «توسيع قاعدة هذه الثروة بحيث تستطيع الوفاء بالحقوق المشروعة لجماهير الشعب العاملة»[٢٢].

وعلينا أن ننادي بإصلاح الخطاب السياسي على الساحة العربية. يقول د. سمير تناغو (أستاذ الحقوق في الإسكندرية) «وقد كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن ضرورة إصلاح الخطاب الديني ولم يؤدِ هذا الحديث على كثرته إلى أية نتائج ملموسة. لأن الدين أمر مقدس. تصعب فيه التفرقة بين ما هو ثابت وما هو متغير، وبين ما هو إلهي وما هو بشري، إلا لمن توافرت فيه شروط المجتهد مع توافر شروط الاجتهاد الأخرى والحاجة إلى مثل هذا الاجتهاد وضرورته. ولا ينبغي على رجال الدين إلزامهم بما لا يلزم وإقحامهم فيما لا شأن لهم به، والأجدر برجال الدين في هذه الحالة أن يردوا إلى رجال الفكر بضاعتهم، إن ما نحتاج إليه فعلاً ليس هو إصلاح الخطاب الديني، وإنَّما هو إصلاح الخطاب السياسي، وكُلّ ما يجري على مسرح السياسية العالمية لا يحتاج إلى اجتهاد دين جديد. وإنَّما يحتاج إلى نضج سياسي وعقل راجح سليم»[٢٣]. ورأى أن هذا التوجه إذا تمّ على الساحة العربية سيكون هناك متغيرات أكثر إيجابية للعالم العربي.

---

(٢١) جمال عبد الناصر، **الميثاق الوطني**.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) «إصلاح الخطاب السياسي وليس الخطاب الديني،» **الأهرام**، ٢٧/ ١١/ [٢٠٠٣].